

الفصل الخامس

وكان علي يُحب امرأته أشد الحب، ويؤثرها أعظم الإيثار، لا يعدل برضاها شيئاً، ولا يدّخر في سبيله جهداً. ولم تعرف أم خالد أن زوجها قد خالف عن أمرها أو تنكر لها أو خيب لها أملاً أثناء هذه الأعوام الطويلة التي قضتها عنده، بل لم تعرف منه إلا برّاً بها وعطفاً عليها وفناء فيها. ولولا أنّ الشيخ أمر بهذا الزواج المشئوم لما صمّم عليه ولا ألحّ فيه ولنزل في أمره عند إرادة امرأته، ولكنها عرفت حين تمّ هذا الزواج على كره منها أنّ هناك شخصاً هو أثر منها في قلب علي وأكرم منها على نفسه وأحرى ألا تردّ له كلمة.

ولست أدري أكانت خيبة أملها في زوجها أشدّ عليها من خيبة أملها في ابنها، ولكن الشيء الذي ليس فيه شك هو أن هذه المرأة البائسة قد فقدت في وقت واحد ثققتها بالزوج وثقتها بالابن، واستحييت من نفسها أن يكون سلطانها على زوجها قد ضعف إلى هذا الحد، واستحييت من نفسها أن تقدم إلى جاراتها وأصدقائها في المدينة هذه الهدية المنكرة التي أهديت إلى ابنها، ولعلها كانت سعيدة بهذا المرض الذي اضطرها إلى غرفتها، وحال بينها وبين استقبال الزائرات وقد جئن يهنئنها بما كانت تحدّث نفسها به، وبما تحدّث كل أم نفسها به، من الفرح بابنها يوم تزف إليه عروس صالحة بارعة الجمال كثيرة المال. أُعفيت من هذا كله، ولم تستقبل من الزائرات إلا هذه الآلام المبرحة التي لزمّت غرفتها ليلاً ونهاراً، وهذه الحمى الناهكة التي كانت تزورها وجه النهار وآخره، وكان علي أشقى الناس بهذا المرض وأشدهم به ضيقاً، ولكنه لم يكن يُقدّر أنه سينتهي بامرأته إلى الموت، ولم يقدر أن إصراره على هذا الزواج كان مصدراً لهذا المرض أو كان مصدراً من مصادره، ومع ذلك فقد أحس ذات يوم أن امرأته في آخر لحظة من لحظات الدنيا وأول لحظة من لحظات الآخرة، فجزع لذلك جزعاً شديداً كاد يخرجّه عن طوره، لولا أنّه كان مؤمناً حقاً، وقد أقبل على امرأته يستغفرها مما يمكن أن يكون قد قدّم إليها من خطيئة